أمـــان

للسيدة الفاضلة منيبة الكيلاني

لا أدري أين قرأت أن أجمل منظر فى الدنيا هو منظر الأم الشابة ، وهو قول ينطبق على الواقع كثيراً ؛ غير أنى فى الوقت ذاته أرانى أتصور أن أقبح منظر فى الدنيا هو منظر الأم الشابة أيضاً !

***

هذه الفتاة الشابة الجميلة تمر من هذا الشارع كل يوم فى ردائها الأسود الجميل فتثير على جانبى الطريق جدالاً بين الناظرين إليها ، فى قامتها الأنيقة وانسدال السواد عليها ، وفى عينيها الباهرتين وتجللهما بالصمت المبين ، وفى شعرها الذهبى الرائع وإهمال تنسيقه على نحو ما يليق به . تثير جدالا بين الناظرين إليها فينبرى دعى يقول بأن هذه الفاتنة احتسبت أباها أو ماتت عنها أمها فهى تتشح بالسواد على أحدهما . ويقول دعى آخر إن ظهور الحزن عليها وتطامنه فى عينيها الساجيتين ليوحيء بأنها احتسبتهما جميعاً . ولا ترجح كفة أحد ؛ فإن السر لا يطفو على الوجوه جميعاً ، وإن القلب لا ينضح بما فيه دائماً ، فتسير الفانية من دارها إلى حيث تريد ، وتعود إلى دارها من حيث انتهت لا يجد فى استشفاف أمرها جديد . والراجح فى الظن أن الفانية جاءت هذا البلد وافدة من مواطن الذكريات لتطوى ماضياً بأحداثه الكثيرة طى السجل للكتاب ، ولتجد فى هذا النهج ذى الوتيرة الجديدة المحدودة بلسما للجرح فى صيدلية الزمن ، فإن فيها أنجع الأدوية لأخبث الجراح .

وما كان ليفوتها أن تلج بيت الله فى أيام الآحاد تنفض فى ساحته الكبرى خلجات الضمير وتمد بصرها راجية راحة النفس وطمأنينة الحس ، وتسأله العون وتستزيده الرعاية ، فقد ذهب

غير أنه لا توجد هنالك أدلة مقنعة تؤيد أن « العبيريين » هم « العبرانيون » بالذات(١) . ولو أن جماعة من علماء اليهود تحاول البرهنة على ذلك لتظهر أن اليهود كانوا قد دخلوا أرض فلسطين منذ هذا العهد .

والذى يظهر من التوراة أن « العبرانيين » كانوا أرقاء فى مصر ثم خرجوا منها هاربين حوالى القرن الثالث عشر قبل الميلاد تحت قيادة زعيم لهم هو « يشوع » « Joshua » الذى حل محل « موسى » وخلفه ، وهو ابن « نون » من سبط « إفرايم » الذى عبر الأردن وقاد جماعة « إسرائيل » إلى « أرض الوعد » وحارب شعب كنعان ست سنين وأخذ أرضهم وقسمها بين الإسرائيليين . وسقطت على يديه أسوار أريحا وست أمارات صغيرة ، غير أن الإسرائيليين لم يتمكنوا من فتح كل فلسطين ومن التغلب على الأمارات الوطنية وعلى مقاومة كل الكنعانيين(٢) .

ويفهم من الكتابات القديمة للتوراة أن من الأسفار المكتوبة قبل الأسفار التى أخذنا منها روايتنا الأولى أن الإسرائيليين عبروا إلى حدود فلسطين ولم يكن على رأسهم قائد أو زعيم بل تقدموا على هيئة قبائل متفرقة ثم صاروا يهاجمون المدن الفلسطينية الضعيفة من جهات مختلفة ولم يتمكنوا من الاستيلاء إلا على نواح قليلة من فلسطين ، وهذا ما يلائم ماجاء فى نصوص « تل العمارنة » كل الملاءمة(١) .

لم يتمكن الغزاة من الاستيلاء على كل فلسطين ولم يتمكنوا من احتلال السهل الخصب المهم المسيطر على البحر الأبيض المتوسط وهو سهل « فلسطية » نسبة إلى سكانه القدماء وهم « الفلسطينيون » « Philistines » وظل الفلاحون والقرويون القدماء على تقاليدهم القديمة وفى محلاتهم مثل « الجبعونيين » « Gibeanites » الذين كانوا يقيمون فى مدينة « جبع » « Gileon » والذين ظلوا يقاومون الإسرائيليين مع أن مدينتهم هذه لا تبعد سوى خمسة أميال تقريباً عن جنوب القدس والتى تقع فى موضع « الجب » فى الوقت الحاضر ، وقد اشتركت مع الملوك « الكنعانيين » فى محاربة « الإسرائيليين » ومهاجمتهم مراراً عديدة ؛ وقد اضطروا إلى مغادرة وطنهم بعد أن دخلت فى حوزة « البنيامين » غير أنهم لم يذهبوا بعيداً عنهم واضطر المجزة منهم إلى اعتناق الديانة الإسرائيلية غير أن كثرتهم ظلت تحارب الإسرائيليين .

جواد على

(١) Ench. Bibl. p, 1984, hastings - p, 673 hommel A h T - 130, Kohut, memorial Studies p 110

(٢) Ency Bibl p 1717

(١) hastmqs p 704 Stenuig DB 764

الراعي فيدلها ذهابه من حال إلى حال ...

ألا من يكون راعيها الذي تشكو خلو مكانه إلى الله آسي القلوب المحطمة التي لا تشعب؟ ومن يكون راعيها هذا الذي تلتقي بطيفه في ساحة الله الكبرى فتنعم بالذكرى تحيط بالطيف، وبأنغام الأرغن والصلاة الصاعدة إلى ملكوت السماء تحيط بالذكرى. ثم تحتفل عينان من دون العيون بأدمع قليلة بالغة السخونة.. ثم تنفرج شفتان من دون الشفاه بصلاة قصيرة. ثم تهفهف الدمعة.. وتطبق الشفتان، ثم تستدير القامة الفارعة الجميلة فتيمم شطر الباب ثم تمتد اليد بالصدقات للفقراء والساكين؛ ثم يتكرر المنهج اليومي محاطاً بالذي يقول أنها احتسبت أباها، والذي يقول أنها فقدت أمها أو فقدتهما جميعاً.

وإنه ليوم من أيام الآحاد في الربيع الباسم وقد انتشرت فراشات الحقول وتحمل النسيم رسائل الفل والياسمين وجاءت الساعة التي تقف فيها الفانية في ساحة الله بقلب رقيقته الذكرى المفعمة هذه المرة بمعاني الربيع، وانكفأت الحسناء كعهدها كل مرة ولكنها ساقها التوت وسقطت على الأرض سقطة غير متوقعة، فأنهضها رجل بجانبها ورافقها حتى الباب ... ثم تمنى لها العافية وانصرف.

ورآها مرة أخرى فسأل عنها، ثم كان طريقهما واحداً فتحادثا. وقد يلذ للانسان أن يتحدث عن نفسه، وقد يلذه أن يسمع.. فتحدثت وسمع ... ثم تحدث فسمعت... وقد تقابلا من بعد فعرف منها ما استعصى على المدعى من قبل وما كان خليقاً به وبغيره أن يستعصي عليه؛ فقد عرف أنها أرملة، وأن الذي فقدت هو زوجها الذي بنت به في الربيع الخامس عشر من عمرها والذي تخلو بطيفه في ساحة الله الكبرى على نغم الأرغن وصلاة الكاهن خلوة الروح.. بالروح!. وقالت له فيما قالت إنها أم لابنة أيضاً. وكان الرجل يصغي لها وهو يرتشف الكلام ارتشافاً ويسكر من جرسه سكراً لا يعرفه إلا صرعى العواطف المؤججة. وأحيط قلب الرجل بشغاف من حسنها وإخلاصها وعرف أنه باخع نفسه على آثارها إن هو لم يخط الخطوات الأخرى في إخراجها من دنياها السابقة إلى دنياها اللاحقة، وينعم بها ويبذل لها النسيم المقيم. وفاتحها في الأمر مفاتحة الخائب الترقب رفضاً أو إعراضاً وأعاد عليها المفاتحة صابراً متفائلا، ثم أعاد حتى انتهى معها إلى خاتمة البداية.

فهدت له زورة في دارها يجتمعان فيها الشاي ويبحثان الموضوع بحثاً جدياً جديداً.

وكان هذا — فرأى الرجل أن يحمل لابنة الحبيبة هدايا يعقدبها معاهدة التحالف وحسن الجوار، فقد تحدجه الطفلة غيرى. وقد يحز في قلبها اللدن الغرير أن تجد رجلا يحل من قلب أمها الخلوة الشابة مكاناً ما. ودخل الرجل خيلتها موقراً بهداياه لابنتها، هدايا من الألاعيب لبنات خمس أودونهن قليلا... وحفت للقائه.. ثم كان كلام وحديث، ثم عرض هداياه وسأل عن الطفلة فأخبرته أنها في حاشية الحديقة تلهو وتلعب، وأن من الخير له أن يذهب بالهدايا إليها ويفاجئها بها فإن هذا قد يكون أدعى لبهجتها وسرورها. ففعل الرجل هذا وانتهى إلى الطرف الذي أشارت إليه الأم وهتف باسم الطفلة فردت عليه كاعب على المشب في السابعة عشرة من عمرها وقد استغلقت تردد طرفها الأزرق البهي في أكناف كتاب، وانبهر الرجل واسقطت اللعب من يده، وفهمت الفتاة القصة وتضاحكت من فعلته؛ ولكن لغة أخرى تتحدث بغير اللعب..... لأن لغة الكلام انتهت رسالتها. ووقفت الأم الشابة الحلوة ترقب قيام المعجزة.. وتمددها وطغيانها وجهها القلبين على طرف الحديقة. فلم لا تأتي هي بمعجزة أكبر ولم لا تقول ما يخشع له الطرف وقد رأت ابنتها تستملح الفتى ورأت هذا ينعقد لسانه ويزوغ طرفه ... دلفت الأم تجمع اللعب وقالت وهي تعود إلى البناية ... سأحتفظ بهذه اللعب ملهاة لأطفال سيتلهون بهم كثيراً. وانقلبت مسرورة فقد أسعدت قلبين وقد سعدت بالتضحية سعادة لا يعرفها إلا ذوو القلوب الكبرى التي تستطيب الحرمان لتذود عن غيرها الحرمان. فكان منظر هذه الأم الشابة أجمل منظر في الدنيا ... أجمل منظر في الدنيا في ثوبها الأسود وقامتها الهيفاء ... وعينيها الصافيتين وفعلتها السامية ... وستنعم كل يوم بدموعها وتضحيتها لأنها أحيت قلبين ورحمت نفسين..

* * *

وهذه فتاة شابة دون الجميلة قيل لها إنها جميلة عشي من هذا الشارع كل يوم فتثير على جانبي الطريق جدالا بين الناظرين إليها فينبري مدع يقول بأن هذه الفتاة أجنبية جاءت هذا البلد مع الحرب كأنها علة من عللها ... فركنت إلى هذا المنزل الذي تديره

هذه البدينة الأجنبية لصلة بين الاثنتين . ويقول مدع آخر بل هي من أهل البلد تهزج مع الغواة بدلوهم وتسوم مرح اللهو حيث أساموا ، فتعود في أخريات الليالي حينا وفي أواسطها أحيانا أخر ، وتحتسي الخمر حتى تتقطع أحشاؤها وبتيض ماؤها ، ثم تستدرك الفائت على يد الطبيب ، ثم تؤوب في حركات منعكسة بعضها عن بعض لا ينتظمها تدارك ولا يخترمها نظام فيضل المدعون . . . لأن السر لا يطفو على الوجوه جيماً ... وإن القلب لا ينضح بما فيه دائما . فتذهب الوجناء من نزلها حيث تريد وترجع إلى نزلها لا يجد في استشفاف ما بهـــا جديد ، ويرجح أنها جاءت هذا البلد وافدة تتبدل زماناً ومكاناً ما كانا بالساعفين ، وقد قيل لها إنها جيـــلة . وإنها مرهفة الحس عصبية كنود بينها وبين أن يجهز عليها الموت شعرة ... وبينها وبين الجنون شعرة . وبينها وبين الانهيار شعرة ... شعرات ثلاث بينها وبين الحياة فلتمرح ولتطرب . فهي جميلة قصيرة العمر لو شاءت ... مديدته لو شاءت ، فخمات هذا في رأسها وحلته في قلبها وفكرت بهذين جيماً فأولتهما أفانين من الأعمـال وضروبا من الأقوال . وخيل إليها أن الناس كلهم خاطبون وأن دنياها ملئت بالمدلهين . هذا بينه وبين الانتحار بسببها قليل ... وهذا خطبه في رفضها ودلالها جليل ... فلتنأ بنفسها عن الماضي نأياً ولتطو ذكريات حبها وزواجها ... وولادة طفلين حبيبين ... وأمومة ... وفشلا وطلاقاً جاهدت من أجله واستحقته استحقاقاً ... طي السجل للكتاب . ولتمش في هـدأة الليل البهيم في ثوب أسود حتى لا يراها الشيطان الذي استأجرها لرواحه ومغداه ، ولتسر طويلا ، ولتعبر المرخاوة مذعورة ، ولتنظر من ورائها ومن جانبيها وليرها القمر الآفل خيالها المنقب المتأثر الملتاح المستهزىء ، ولتسر من شارع إلى شارع لا ترى إلا النوافذ المغلقة ولا تبصر إلا السكون المتمطي ، ولتنفذ السير حافية إن أرادت ، منتعلة إن شاءت ، ولتمش في نفس المسالك التي مشت فيها سيارة الخاطب الموهوم ، أو الكاذب المشئوم ، ذلك الذي اتخذ منها ماهاة واتخذت منه مدلها ممنا في الغرام ، ولتسمع ضحكاتها من السيارة التي مرت في دماغها ، ولتذهب إلى ساحة كبرى ليست من سوح الله لا لتنفض همومها وآلامها ، بل لتقف وقفة المدان تستنزل عليها اللعنة الكبرى باردة في هجعة الليل وهدأة الظلام . لتذهب فقد أخذ مدى عينها يستوعب بنية سوداء في المبنى المحيطة بها تحدق بها حديقة ساهمة هاجعة . . والكوى راجعة إلى طبعها الصادر الحالم في أخريات الليالي لا تفضي بأسرارها . وهنا ؟ هنا . رأت نفسها غير مرة على متن سيارة إلى جانب قريب أو خاطب . . في ألوان زاهيات لا تقربها من الأمومة أبداً .. فهي توكل السيدة البادنة ربة المنزل بخصائص الأمومة التي ورثت منها . . وتنساب هي مع مقتضيات الحديث من جانبها . . جادة أو هازلة حتى تنقضي الزيارة البتورة بأن حمل للطفلين عن الأم المحمولة على غارب الهوى . فاكهة يطعمانها عن غير يدها وغير قلبها . فلتقف هنا . . ولتنتظر نزول اللعنة في منبلج الفجر . !

وجاوزت السياج وارتقت إلى الكوة ارتقاء مزعجاً ، فالكوة لا تريدها ، ونظرت على خيوط الشفق البيضاء الأولى بين الأطفال الهاجعين في ذلك الملجأ . . طفلين . . هما الوحيدان اللذان فيهما معنى اليتم . . وما هو باليتم من فقد الأبوين بل من فقد العطف والحنان عند هذه الأم الأغلف قلبها فلا يعقل . . الصم آذانها فلا تسمع . العمى عيونها فلا تبصر ، وطفلاها اللذان حملتهما كرهاً ووضعتهما كرهاً .. في ملجأ الأطفال الغافلين الحائرة جدودهم .. الطائشة حيلتهم .. صبرهم هباء .. وأفئدتهم هواء

وتشرق الشمس فتتمطى هـذه الأم مفيقة من الحلم الذي أسرى بها ليلا من المنزل إلى الملجأ ... من حيث لم تبرح فراشها

وإن الأمس بشرابه وسهره وألحانه ودعاباته قد أورثها صداعاً لا بد له من الطبيب والحبيب والقريب والخطيب ، ولا بد من صحب ولدات يرون هذا فينبطون أو يرثون ، ولا بد أن تبدأ عند ما تساعفها أصابعها الواهنة في خنق شيء ... هو حب الطفلين . . وإنكار عطفها أو علاقتها بهما ... للخطيب الموهوم ليتم أقبح منظر في الدنيا منظر أم شابة مؤثرة بتضحيتها ، لأنها ضحت بقلبين ، وقربت طفلين للصنم الذي خيل إليها أنه يهب الخير ويتم النعمة ... وستبقى هكذا ما بقي خيالها وخيالها ورجالها .

الأم الشابة ! أجل منظر في الدنيا .. وأقبح منظر في الدنيا .. لا أدري أين قرأت هذا ، ولكني قرأته وعرفته .. وآمنت به .. فلتنظر الأم أين هي؟ أهي أجل منظر؟ أم أقبح منظر؟ أما الوسط في هذا فمحال !

صفية الكيلاني